

طعام الميتين

محمد عز الدين النازي

صنعوا قفزة رائعة وتعلقوا بأحد فروع تلك الأشجار . موت أجسامهم إلى الأرض وهي تشعر بنعومة غريبة . تناثروا بين أرجاء المكان الواسع . احسوا ضغطا ثقيلا على صدورهم . تجمعوا في بؤرة واحدة ونظروا إلى عيون بعضهم بمكر وكانت عيونهم تفهم ما يريدون أن يقلبوا عليه هنا أو في مكان آخر . الامر يختلف . هنا يستطيعون في هذا الخلا ، أن يلهو بأجسادهم وأعضائهم ويلعبوا لعبتهم السرية ، يستطيعون أيضا أن يصطادوا اللقائن من أعالي الأشجار . في مكان آخر ، يمكنهم أن يبدأوا جولتهم على الحوانيت في شوارع المدينة يسطون على معروضاتها الخارجية . ويطلقون سيقانهم للرئيسح .

ظلوا متحلقين حول بعضهم وعيونهم تتبادل النظر وتختار أي الامور عليها أن تريد .

الوحد والبقع المائية في كل مكان . المرج الصغير هناك . الصغار يغرقون سراويلهم في الماء العكر الذي تنمو بداخله الطحالب . يصطادون أشياء تشبه سمكات صغيرة بدون صنانير . يدخلون أياديهم في الماء مفتوحة الاكف والاصابع وهي تتحرك بليونة كأنها تغافل ما سوف تصطاده . ثم ترتفع إلى الأعلى وقد أخرجت حذاء من الكاوتشو ، أو سلسلة صدئه أو خشابا منتفخة بالماء . يضعون كل صيدهم على حافة التربة المائية . يشرب أحدهم بكفيه ، ينحني بوجهه ، يعب من الماء العكر بفمه وينفخ في وجه أصحابه ، يتصاحكون ، ويركضون خلفه حتى المساحة الفارغة التي تحف بها الأشجار .

راوا جسما صغيرا مكورا وهو يتحرك ، يحمل إلى جواره جسما آخر مكورا أيضا . الجلباب الرمادي والكييس الاسود المنتفخ . الخطوات تعبر بجانب

المرج . يسحب الرجل ثقله على الارض . كان الكيس منتفخا وهو لا يقدر على حمله فوق الكتفين . ظلوا ينظرون اليه وهو يقترب . بدأت ملامحه تتحدد . اسمر . نحيل عضلات الوجه . غائر الاحداق . ينظر الى الارض ولا ينظر الى الاشجار والغيوم . كان ذاهبا الى البيوت الطينية التي يجف على جدرانها روث البهائم ، وتسبح بين دروبها القاذورات ، هناك تغسل النساء الاواني ويتغوط الاطفال ، يسحب كيسه ويمضي كي يبيع بضاعته قبل عبوط الليل . لا حقيقته عيونهم . دخل وسط الاحراش القصيرة . تلمل في مشيته . توقف . حاول ان يحمل الكيس على ظهره . ارخى جسده على ركبته . ادار ظهره الى الكيس ممسكا به من الخلف . اعتمد على ضغط قدميه على الارض ، ومال قليلا نحو الامام ، بحذر شديد حتى لا يسقط ، ويقع عليه الكيس الذي كان صلبا . لم يستطع . حاول مرة اخرى . بدأت سيقانه ترتخي ولا تساعد . عاد يسحب الكيس بيديه على الارض . لماذا ملاه الى هذا الحد ؟ كان عليه ان يكتفي بما يقدر على حمله . الزبائن عددهم كثير وهم يتهافتون عليه حتى تنشب بينهم الخصومات وينفذ مبيعه في اقل من الساعة . ايضا كانت المسافة قريبة ، وقد حصل اليوم على بضاعة وفيرة ، فلماذا لا يشبع بطون الناس ؟ ناوبته الحسرة . احس ضعفا ثقيلا على صدره . لم يفكر في ان يعود بالكيس من حيث اتى . ظل الحزن يمزق قلبه . قال لنفسه : اما ان اكون حفار قبور او باحثا عن الكنز . لماذا لا اكونهما معا ؟ غيري من يحفر للقبور ، ويوارىها الدفائن ، وانا انبشها حتى استخرج الكنز . عاودته الفرحة . أخذ يضحك بصوت مرتفع . استدار خلفه خوفا من ان يسمعه احد . لا احد هنا بين هذه الاحراش .

ظلوا يلاحقون خطواته وهو لا يراهم . ينطون خفافا في الهواء كالعفاريت . يخفقون ضحكاتهم ويلتبسون بالاشجار . يومنون لبعضهم بالاصابع وحركات الوجوه . اشار احدهم ان يتحلقوا حوله ، وممسوا في آذان بعضهم :

- هذا هو المكان المناسب .
- لنؤجل حتى يقترب من الهضبة .
- هنا افضل .
- نجهز عليه جميعا . بعضنا يقيد ايديه . والآخر يحمل الكيس ويهرب .
- نقيده مع شجرة حتى لا يلحق بنا .
- من اين نأتي بالحبل ؟

- لا حاجة الى فلک .
- اتركوا الرجل وتعالوا نصطاد اللقالق .
- نجمع بيضها افضل .
- نصعد الشجرة هناك ، ونختبئ وراء العروش ، ثم نمسكها من الاجنحة على حين غرة .

- اصعد وجرب .
 لم يصعد ولم يجرب . نظر اليهم نظرة مغايرة . قال لهم :
 - تعالوا نجهز على الرجل ، ونختطف الكيس .
 قال آخر :

- حرام .
- اسكت انت ما زلت صغيرا . انه لا يدفع مالا في بضاعته . يحفر قبورا ويستخرجها لبييعها لنا بالنقود ، ولا يقبل الدين ، ولا يزيد قطعة صغيرة فوق القطع المنضودة على الارض ، ولا يخفض من الثمن الذي طلب . هو لا يعرف الحلال من الحرام .
- دعونا نصطاد اللقالق .
- هيا نعود الى المرج والترعة .

ظلوا يتهامسون ، كانت اصواتهم قد ارتفعت عندما أدركوا أن الرجل قد تجاوزهم وابتعد بين الاحراش القصيرة .

الشمس في مغيبها تماما ، بعد أن اختفت ألوانها العجيبة . ظهرت زرقة خفيفة شفافة تشتد ققامتها مع امتداد الزمن . كان يرتفع مع الهضبة الصغيرة لينحدر الى المكان الذي تمره بيوت من الطين الاحمر والزنك والواح واعدة الخشب المنخور . خان حاد اسود يعلو من كل البيوت ثم يتلاشى . نهيق حمار متقطع . ظل يسحب الكيس وعرقه يتصبب على جبينه وفوقه . تنفوس اصابعه بين ثفايا الثوب الخشن ويسحب بعنف متمسكا به خوفا أن يفلت منه وينحدر مع الهضبة الصغيرة ، ويضطر الى الجري خلفه وبذل مجهود آخر ، او ربما جذب ايضا فيسقط على بطنه او يتهاوى الى المنحدر . كلبة تقترب من مكان خطواته ، وقد استقرتها حمية الرائحة التي كانت تتشممها من الكيس . الكلاب تميز رائحة اللحم من بين جميع الروائح . استدار خلفها وقد اراد أن يرميها بحجرة . رأى جلود اثنائها التي تتمايل حول البطن . أشفق عليها وتركها تمشي بجانب خطواته . نظر الى الكيس بفرحة . فجأة تحولت فرحته حزنا غائما اسود . ماذا لو ضبطوه يبيع بضاعته الى الناس ؟ سيساق الى السجن . لا يهم . ولده

سينوب عنه في نبش القبور واستخراج الكنز حتى يعول الاولاد الآخرين .
كان لا يقبل منه مساعدة حتى لا يقبض عليهما معا في وقت واحد . لا ضرر في
أن يتناوبا على السجن . لمست يده العظام الصلبة داخل الكيس . فكر في
المرّة القادمة في أن يتوقف بين الاحراش ويهبر اللحم ويترك العظام للكلاب ،
بذلك يرتفع الثمن ، ويخف عليه الثقل .

عند ما أطل عليهم يجر كيسه وخطواته ، أخرجوا قطعهم النقدية
وتجمعوا حوله . تنحى جانب شجرة سنديان تلتصق بصف البيوت . فتح
فومة الكيس . أخذ يخرج قطع اللحم ويوزعها على الأرض . لم يكن يستعمل
ميزانا . يبيع بالمعايينة . هذه القطعة بثلاثين ، والاخرى بسبعين .. حسب
الحجم . القطع اللحمية متربة ولا بد من غسلها جيدا قبل الطبخ .. هكذا كان
ينصحهم باستمرار . التراب تراب الأرض .. وأنتم تحبون كل شيء له
علاقة بالأرض ، كلوا من رزقها ولا تخافوا أي شيء ، ما تدفعونه لي من نقود
هو رزق الاولادي أيضا ، هم كذلك يأكلون من هذه اللحوم . قطعة واحدة
وانتهي . من يأخذ ؟ غدا سأأتي اليكم في مثل هذا الوقت . من يأخذ هذه القطعة
الباقية ؟ يحملها أحدهم ويلقي بقطع نقدية على الأرض . يدخلون بيوتهم .
يطوي الرجل كيسه ثم يضعه تحت أبطه . يعد النقود ويمضي . يتسلق
الهضبة الصغيرة . يحترس من أن تغوص أقدامه في الأرض الطينية اللينة .
يضع أقدامه على بعض الاحجار وهو يخطو . حجرة . حجرة . حجرة ... رفع
رسه الى بعض الاشجار ، رأى ثمارها الجافة المعلقة ، وأغصانها العارية
المتشابكة التي تشكل في الظلام حالة سوداء تشبه شعر امرأة . الحس فرحة
بوجوده بين الاشجار ، وحيدا ، في طريق عودته الى بيته الطيني في الجهة
الشمالية وراء المرج . كان يحاول ان يتلمس طريقه قبل أن تتحول الزرقة
السماوية الى ليل داكن يحجب كل شيء .

في الصباح ، سوف يقف على بعد مسافة من باب المجزرة ، يوحى
للناس بأنه يفعل شيئا ما ، ينتظر أحدا ، يتبول خلف السور القصير ،
يشترى المصارين من أحد الجزائريين ، أي شيء آخر ، وعينه على البيطري .
سيارته هناك . بعد قليل يخرج ليعود الى المركز ، وبعد ذلك بفترة ، سوف
يحملون الذبائح المريضة ليواروها التراب . في ذلك الوقت ، يتعقب الخطي
ليعاين مكان الدفن ، ثم يعود في وقت آخر لينبش القبور ويضع اللحوم في
الكيس ليذهب بها الى الاهالي .